رحلة مع المتنبي والشعراء: موازنة ومفاضلة ومشابهة

أبو الطيب له أصدقاء وأعداء، شأن العباقرة اللامعين، والجهابذة الساطعين، فهو عند أصدقائه فرد في بابه، نجم في سمائه، أسطورة من أساطير الشعر، وهو ملك القافية عندهم، ورسول الإبداع، ولكنه عند أعدائه سارق من كيس غيره، عالة على سواه، يعدو على نتاج الشعراء، ويختلس معانيهم، ويزوِّرُ أبياته، ويزخرف كلماته، وليس له جهد إلا نظم ما سبق، وهكذا وقع الخلاف على هذا الشاعر، وهكذا فلتكن العظمة. وأريد أن أذهب بك أيها القارئ في رحلة طويلة مع المتنبي والشعراء، نستمع إليه وإليهم، ونوازن بين ما قالوه؛ لنرى من هو السابق منهم واللاحق.

يقول أبو الطيب كما ذكر ذلك الكندي وليس في ديوانه:

أَبِعين مفتقر إليكَ نظرتَني ... فأهنتَني وقذفتني من حَالِق

لستَ الملومَ، أنا الملومُ لأنَّني ... أنزلتُ آمالي بغيرِ الخَالِقِ

وهذا المعنى لهج به الشعراء وأكثروا منه، لكن صياغة المتنبي للمعنى فائقة وشائقة، وهذا أكثر شعره، فإن المعنى قد يسبقه إليه شاعر؛ لكنه يكسو المعنى مطرفًا جميلًا، فكأنك ما سمعته من قبل، وعلى ذلك البيتين السابقين فقد قال الشاعر:

وكنتُ كالمتمنِّي أن يرى فلقًا ... من الصَّباحِ فما أنْ رآه عَمِي

وقال غيره:

لما بـدا العـارضُ فـي خَـــدِّه بشَّـرتُ قلبـي بالنَّعيـمِ المقيـمِ

وقلـتُ هـذا عـارضٌ ممطـــرٌ فجاءني منه العـذابُ الأليـمِ

فانظر إلى عذوبة ألفاظ المتنبي وتميزها على ما ذكرته من أبيات، وهذا يدلك على قوة تخيله، وبراعة ذهنه، وجودة اختيار، ولله في خلقه شؤون!!

ولكن هذه العبقرية الشاعرية لها كبوات وعثرات، شأن العمل البشري، فإنهم شبهوا إنتاج العباقرة بالبيت، فيه مجلس للضيوف، وغرفة للأهل، ودار للطبخ، وهكذا، فتجد في عمل هؤلاء النابغين الإبداع الراقي الذي يخلب الألباب، ثم تجد السفول والابتذال، والمعنى الرخيص، واللفظ الموحش المزدرى.

ومن سقطات العبقرية قول المتنبي:

كفى بجِسَمي نحولاً أنني رجـلٌ لولا مُخَاطـبتي إيَّاكَ لـم تَرنـي

فكيف يخاطب ممدوحه وقد مُحِيَ خلقه، وذاب شخصه، واندرس هيكله، وهذه مبالغة ممجوجة، استخف بها النقاد وحق لهم ذلك.

ويقول أبو الطيب:

فقَلْقَلتَ بالهَمِّ الذي قَلْقَلَ الحَشَا قلاقـلُ عيـسٍ كُلُّهـن قلاقـلُ

وقال بعض الأدباء لما قرأ البيت: كأن الرجل فقد عقله لما قال هذا البيت، وقال آخر: ليته أراحنا من هذا البيت فقد أتعبنا وأضنانا.

ومثل هذا اللغو الخطابي، والغرابة الموحشة قول الأعشى:

وقدْ غَدوت إلى الحانوتِ يتبعُني شاوٍ مشلٌّ شلولٌ شلشلٌ شولُ

وهذا كلام سامج ساذج، سخيف ثقيل على السمع؛ لأن الإشراق والفصاحة مطلب بياني ومقصد شاعري.

ويذكرني هذا ببيت أبي تمام الذي سهر عليه ليلة كاملة، ثم فتح عليه فقال مع الفجر وليته ما قال:

سلمى سَلمتِ من العاهاتِ ما سَلِمتْ سلامُ سَلمى وما قد أوْرقَ السلمُ

فانظر كيف سبكه ولبكه وحبكه وهاسه وداسه، وهذا ليس بشعر أو كما قال صفي الدين الحلي:

يا بَلِي البالِ قد بَلْبلت بالبالِ بَالي لنوًى زلزلتني قد زالَ عَقْلي زوالي

وأعاذنا الله من هذه اللوثة والغثيان والسقط في القول. والمقصود أن المتنبي كغيره من الشعراء، له عثرات في شعره مضحكة، حتى أنه لما قال في وصف الجبان:

وضاقتِ الأرضَ حتَّى كان هاربُهُم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

قال النقاد غير شيء ليس موجودًا فكيف يراه؟! وهذا يخالف العقل، وقال في بيت آخر:

إنِّي على شَغَفٍ بما في خُمرها لأعفُّ عَمَّا في سَراويلاتها

فقلنا: ما هذه العفة الدنيئة واللغط والسقط والشطط؟! وليته سكت عن هذا الهذيان، وقال في قصيدة لعضد الدولة:

فما يُسمي كَفَّنا خُسرَ مُسمٍ ولا يُكَنى كَفَنا خُسرَ كاني

وكأن الرجل يتكلم بالأردو أو بالبشتو، ولعل العجيب في هذا البيت سوء التعقيد والوحشة.

ويقول في موطن آخر في ممدوحه:

العارضُ الهتن ابنُ العارضِ الهتنِ ابـ ـن العارض الهتن ابنِ العارضِ الهتنِ

فانظر كيف تقيأ هذا الكلام ولو بقي فيه لقتله.

وقال عن سيف الدولة يصف أجداده:

فحمدانُ حمدونٌ وحمدونُ حارِثٌ وحارثُ لُقمانٌ ولقمانُ راشِدُ

وهذا هو التكلف والنزق والطيش والسفه، والحمد لله على السلامة.

وهذا لا يعني أن هذا الشاعر عاجز فاتر، بل هو أبو الشعر، وأستاذه بلا منازع؛ لكن أردت أن أخبرك بعثرة العظماء، وسقطة العباقرة، ونقص العمل البشري. وإلا لو ذهبنا نمعن النظر في لوحات أبي الطيب الجميلة، ورسومه الشاعرية الساحرة، لأخذنا العجب وأسرنا الإبداع. وله باع طويل في الفنون الشعرية، فهو إذا ذهب إلى الغزل أشجى، وإذا ذكر الديار أبكى، وإذا مدح كفى، وإذاوصف شفى، وإذا هجا كوى، وكل هذا دليل على تمكنه، وقوة ذاكرته، وخصوبة خياله، وجودة خاطره، وسيولة ذهنه، وصفاء قريحته.

وتعال إلى شيء من رثائه وعويله وصراخه من الدنيا، وتفجعه من الفراق، وذكره للموت، واسمع ماذا يقول هذا الأعجوبة:

يقول في رثائه لشجاع:

الحزنُ يقلقُ والتَّجملُ يَردعُ والدَّمعُ بينهما عِصِّيٌ طيعُ

فيا له من مطلع عجيب، ومن بداية مؤثرة ساطعة، تحرك الشجون، وتستمطر العيون.

ويقول باكيًا شاكيًا من الدنيا:

لحا اللهَ ذي الدُّنيا مناخًا لراكبِ فَكُلُّ بعيدِ الهَّمِ فيها معذبُ

فانظر إلى هذا الإيقاع المؤثر، والنشيد الصادق، والحكمة الثاقبة، مع سهولة الجمل، وحلاوة اللفظ.

وله قصيدة زهدية رثائية حزينة من أبياتها:

أَبنِي أَبِينا نحنُ أهلُ منازلٍ أبدًا غُرابُ البَينِ فيها يَنْعَقُ

نبكي على الدَّنيا وما من معشرٍ جمعتهمُ الدنيا فلم يتفرَّقُوا

أينَ الأكاسرةُ الجبابرةُ الأُولَى كَنزَوا الكُنوزَ فما بقينَ ولا بقوا

من كلِّ مَنْ ضاق الفضاءُ بجيشه حتَّى ثوى فحواهُ لحدٌ ضيِّقُ

فهو هنا متمكن مما يقول، مؤثر بشاعريته، متفاعل بعواطفه، وقد يوجد من يتفوق عليه في بعض القصائد، أو في فن من فنون الشعر، لكن في جملة شعره، وفي مجموع قصائده هو الأول، فمثلًا أبو الحسن الأنباري في قصيدته:

عُلـوٌّ في الحياةِ وفي الممـاتِ بحـقٍ أنتَ إحـدى المعجـزاتِ

أقوى وأعلى من المتنبي في مراثيه.

وابن عبدون الأندلسي في مرثيته الشهيرة التي فيها:

وليتها إذ فدتْ عمرًا بخارِجةٍ فدتْ عليّاً بمن شاءت من البشـرِ

هذه المرثية عندي أجمل من مراثي المتنبي.

وكذلك قصيدة عدي بن زيد:

أيُّهـا الشَـامتُ المعيّرُ بالدهـ ـر أأنتَ المبَـرَّأُ الموفـورُ

لكن هؤلاء الشعراء لهم في الإبداع القصيدة والقصيدتان، لكنَّ أبا الطيب له مئة قصيدة أو أكثر كلها بديعة جميلة رائعة.

فهو عندي كطالب عبقري يدرس عشرين مادة، يحصل في كل مادة على خمس وتسعين درجة في المائة، وكل صديق من أصدقائه لم ينجح إلا في مادة واحدة، حصل على الدرجة نفسها أو مئة في المئة، ورسب في المواد الأخرى جميعًا.

فالمتنبي مُجيد في المدح، آية في الثناء على ممدوحه، حتى تشعر بأريحية وأنت تطالع مديحه، وتتمنى أنك كنت الممدوح لجودة ما أمطر به هذا الشاعر الأعجوبة.

يقول لسيف الدولة:

وقفتَ وما في الموتِ شـكٌ لواقفٍ كأنكَ في جَفنِ الرَّدَى وهو نائـمُ

تمـرُ بكَ الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً ووجهُك وضاحٌ وثغرك باسمُ

فلله دره أي مديح هذا؟! وأي ثناء هذا؟! وأي شعرهذا ؟!.

ويقول في كافور:

عَـدُّوكَ مذمـومٌ بِكـلِّ لسـانِ ولو كانَ من أعدائكَ القمـرانِ

ولله سـرٌ في عـلاك وإنمـا كلامُ العِدا ضـربٌ من الهذيانِ

إلى أن يقول:

قضـى اللهُ يا كافورُ أنـك أولٌ وليـس بقـاضٍ أن يُـرى لك ثـانِ

فـانظر إلى هذا المديح الذي يسلب العـقـول، ويخلب القلوب، وليس تفـوق المتنبي في المدح حتى يفضل على غيـره، بل في مـجـمـوع فنونه وكل قـصـائده مجتمعة كما أسلفت، وإلا فقد حفظ التاريخ مدائح قد تفوق في مفردها مديح المتنبي، فمثلًا قول زهير في هرم:

تَـراهُ إذا مـا جئتَـهُ متهـللاً كأنَّكَ تعطِيـه الذي أنت سائِلُه

غاية في المديح .

وقول علي بن جبلة العكّوك في أبي دلف:

إنمـا الدُّنيـــا أبُــو دُلــفٍ بين باديـــة ومحتَضَـــرِة

فإذا ولّـــى أبــو دُلَـــفٍ ولــتِ الدُّنيــا علــى أثَـــرِه

قمة في الإبداع والثناء الجميل.

وقول أبي تمام في عبدالله بن طاهر:

يقول في قومَسٍ صحبي وقد أخذتَ منا السُـرى وخُطا المهرّيةِ القــودِ

أمطلعُ الشمسِ تنوي أن تَـؤُمَّ بنـا فقلـتُ كلا ولكـنْ مَطلِعَ الجـودِ

وقد أخذ ذلك خلسة من مسلم بن الوليد إذ يقول:

يقول صحبي وقد جدّوا على عَجلٍ والخيلُ تستنُّ بالرُكبانِ في اللُجمِ

أمطلعُ الشَّمسِ تبغي أن تؤم بنا فقلتُ كـلا ولكـن مَطْلعَ الكـرمِ

فمسلم بن الوليد البادي، وأبو تمام هو العادي، ولكن هذا من أجمل المدح وأرقه وأجزله، والشاهد، أنه قد يتفوق شاعر من الشعراء في جزئية على أبي الطيب، ولكن كلية الشعر الجميل تبقى لأبي الطيب، وله دولة القافية، وهو ملكها المتربع على عرشها.